مقدمة الطبعة الأولى

لن يكون هذا الكتاب هو الأخير من نوعه، تماماً مثلما ليس الأول الذي يتخذ من الأمثال الشعبية مادة له، فالأمثال ذاكرة شعب مشبعة بالخبرة والتجربة والحكمة، لذلك فإنها تظل مادة صالحة للبحث والدراسة والاستنتاجات، طالما بقيت الأمثال محتفظة بوظيفتها.

وقبل أن ندخل معاً إلى صفحات هذا الكتاب، لا بد من الوقوف أمام عدد من الملاحظات التي أراها ضرورية كمفتاح مهم للقراءة.

1) صحيح أن الكتاب تعامل مع موضوع الأمثال الشعبية الفلسطينية التي تم التقاطها من أفواه الناس، ومن مصادر نقلت عنهم ودونت أقوالهم، إلا أننا نجد بسهولة أمثالاً شعبية متداولة في الكثير من الأقطار العربية تشبه ما بين أيدينا قولاً ومعنى.

فالكثير من الأمثال الشعبية الفلسطينية والأردنية والعراقية والسورية واللبنانية والمصرية وغيرها، متشابهة إلى حد التطابق في القول والمدلول، وهذا أن دل على شيء فإنما يدل على وحدة الظروف الاجتماعية، وتشابه العادات والتقاليد والقيم والأخلاق، في الأقطار العربية التي أنتجت خبرات وتجارب ونظماً اجتماعية متشابهة أيضاً.

فالذاكرة العربية التي حفظت هذه الأمثال وأنتجتها، هي الذاكرة الأم، التي غذت الروح والوجدان العربي في مختلف الأقطار العربية، إلا أن ذلك لا يلغي الخصوصية (المغلقة) لكل شعب ولكل قطر، هذه الخصوصية التي جاءت بمجموعة من الأمثال التي لا تنطبق إلا على ذلك القطر، أو على جزء منه.

ونستطيع بسهولة تمييز ذلك من خلال النكهة الخاصة التي تفوح من بعض هذه الأمثال، والتي تدل على جنسيتها، خاصة تلك التي تحمل مسميات وملامح فلسطينية، لا تنطبق على غيرها من المناطق.

2) هناك نوعان من الأمثال الشعبية، يمكن للقارئ لهما، أن يحس بتناقض واضح بينهما للوهلة الأولى، لكل نظرة فاحصة وقراءة متأنية، تحدد لنا مصدر المثل ومرجعيته، ومن هي الفئة أو الشريحة المستفيدة منه والتي تقف وراء صياغته وتعميمه.

فللفقراء أمثالهم وللأغنياء أمثالهم.

وللمستضعفين أمثالهم ولرموز السلطة أمثالهم.

وللمؤمنين أمثالهم وللمارقين أمثالهم.

وللفلاحين أمثالهم ولأبناء المدن أمثالهم.

وللعمال أمثالهم ولأصحاب العمل أمثالهم.

وللمرأة أمثالها وللرجل أمثاله.

وللمسلمين أمثالهم وللمسيحيين أمثالهم وهكذا...

وكل فئة مما سبق، سعت إلى التعامل مع المثل كسلاح يخدم مصلحتها وأهدافها، غير عابئة بانعكاساته على مصالح الفئات الأخرى.

وقد حفظت لنا الذاكرة الشعبية الأمثال جميعها بغض النظر عن مصدرها أو قيمتها الاجتماعية.

3) ذهبت إلى إسقاط عدد من الأمثال الشعبية التي تصرح بما يخدش الحياء العام، مع اعترافي بأن إسقاط مثل هذه الأمثال، لن يلغيها أو يحد من انتشارها بين الناس، لأنها ستفشل شفاهياً بينهم، الرجال منهم والنساء على حد سواء، وتحافظ على وجودها، كما حافظت عليه طوال كل هذه السنوات البعيدة، مع اعترافي أيضاً بأن الأمثال جميعها، هي نتاج تجربة شعب يجب أن يظل أميناً عليها، وأميناً في نقلها أيضاً.

4) لا أدعي أنني قدمت بحثاً أو دراسة أكاديمية، بل قمت بقراءة معاصرة لمئات الأمثال الشعبية، متخذاً من هذه الأمثال التي اقترب عددها من ألفي مثل، المرجع الرئيسي والمصدر الأول لمادة هذا الكتاب، محاولاً الابتعاد عن

الاقتباسات من مصادر أخرى، لكي لا أفسد على المثل حقه في إظهار معناه ووظيفته للقارئ.

فالمثل هنا هو المسؤول عن مادته ومعناه، وهو الذي رسم ملامح هذا الكتاب وحدد أهدافه ورسالته.

وتأسيساً على ما تقدم، أضع كتابي بين يدي القراء متسلحاً بثقة افترضها، بأنه سيقدم المتعة والفائدة معاً، ويضع أمام القارئ سجلاً عميقاً من التجربة الإنسانية الممتدة عدة قرون في قلب التاريخ، هذه التجربة التي نتلمسها يومياً ونعيش أجواءها بشكل طوعي لتعميق انتمائنا إلى أمة عريقة، وإلى شعب موغل في التاريخ في وطن يستحق منا حمايته والدفاع عنه.

وليست الأمثال الشعبية، إلا صورة من صور التاريخ المنطوق لأي شعب، تسندها في مدلولاتها وتدعمها في وظيفتها، الأغنية الشعبية، والخريفية، والحزورة، والألعاب التي يمارسها الصغار والكبار، والطقوس المتوارثة في المناسبات كافة.

ولن تكتمل صورة تاريخنا الذي نريد، دون الإحاطة بما تحفظه الذاكرة الشعبية موروثات صاغتها أجيال متعاقبة، في مكان واحد وأزمان متصلة.

أمثالنا الشعبية هوية وطنية وقومية، نعلن من خلالها الوعي والانتماء والحق التاريخي في ماض وحاضر ومستقبل.

وفي هذا الكتاب الذي أؤكد أنه لم يتعامل مع مجمل الأمثال الشعبية، لأن ذاكرتنا تحمل في طياتها أرقاماً أكبر من الرقم الذي تعاملت به، إلا أنني اتمنى أن أكون قدمت شيئاً يستحق الاهتمام.

وقمت في هذا الكتاب الذي لم يوزع على فصول وأبواب، كما جرت العادة عند الدارسين والباحثين، بالتعامل مع عناوين جاءت واضحة في الأمثال الشعبية، مؤكدة مرة أخرى أن هناك الكثير من العناوين الأخرى القابلة للقراءة والاهتمام.

والكتاب صرخة في واد... أتمنى أن يسمعها أحد ويتابع صداها، من أجل الإحاطة بالأهداف الكبرى التي تستحق منا كل هذا الانتماء والاحتفاء.

هشام عودة